كُنّا فقراء

كثيرًا ما أفكّر بما يحدث معنا من أحداث وتغييرات مجتمعيّة. أحتار وأتساءل كيف لهذا المجتمع الصغير نسبيًّا، مقارنة مع مجتمعات أُخرى حولنا، أن يتغيّر بهذه السّرعة الكبيرة أو هذا الانحدار السّريع أو حتّى الهرولة.

كنّا في الماضي فقراء، ليس فقرًا مُدقعًا، ولكن فقراء. وكانت لدينا، رغم الفقر والحاجة، قيم وأخلاق وأحببنا بعضنا البعض، وساعدنا وآزرنا بعضنا البعض، واحترمنا الكبير والصّغير والمحتاج وأكرمنا الضّيف وأغثنا الملهوف، واحترمنا المرأة، والأم، والأخت، والجدّة. راعينا حق الجار وزرنا بعضنا البعض وشاركنا بعضنا البعض في السّراء والضّراء، وهرعنا لمساعدة المحتاج واحترمنا الغريب وآويناه والكثير الكثير من الأشياء والأخلاقيات المميّزة.

إذا كنّا كذلك فما الذي تغيّر؟! ماذا حدث؟! وكيف أصبحنا على ما نحن عليه اليوم؟!

الذي حدث هو أننا أصبحنا أغنياء. "صار معنا مصاري". لا أقصد أننا أصبحنا نملك الملايين، رغم أنّ بعضنا لديه الملايين والأموال الكثيرة.

نحن شعب اعتاد وبنى عاداته وثقافته على ما يسمى "ثقافة الفقر". كانت أخلاقنا وقيمنا مبنيّة على حقيقة أننا فقراء، وأننا نستطيع أن نحمي بعضنا البعض بواسطة التكافل الاجتماعي والاقتصادي، وكان وعينا أننا بواسطة اتحادّنا وتكاتفنا

سننجو من هذا الفقر ونحقق ولو البسيط البسيط من الانجازات. على هذا النهج تربّينا وتكوّنت قيمنا من وحدة واتّحاد، من مساندة ودعم، من مراعاة وتوافق. كنّا فقراء سعداء.

وفجأة... أصبحنا أغنياء! ولم يحضّرنا أحدٌ لهذا الأمر. لم نتعلم ذلك في المدارس أو حتى الجامعات، لم يشرح لنا أحدٌ كيف يمكننا أن نتصرّف، انقلبنا رأسًا على عقب. أصبحنا نركب السّيارات الفارهة غالية الثمن لكننا لم نعِ أهميّة احترام قوانين السّير أو أهميّة تعبيد الشّوارع، أصبحنا أغنياء وخرجنا إلى إجازات في الفنادق الضّحمة وما زلنا نعبّئ الصّحون بكميات هائلة من الأكل خوفًا من أن يفوتنا شيء من الأطعمة الكثيرة المنوّعة وعندما نسأل أحدهم لماذا كل هذه الكميّة، يقول "إحنا دافعين أو هذا للجميع"، نأكل بشراهة خوفًا من أن نعود جوعى وخوفًا من أن يختفي كل هذا الرخاء الذي نعيشه اليوم.

لاحظوا عندما تذهبون إلى أحد الفنادق الكبيرة والتي تقدّم الوجبات بطريقة "البوفيه" المفتوح أنّ الأجانب يقومون بوضع كميّات بسيطة بصحونهم بينما نحن "نحمّل" كميات هائلة. هذا الأمر يعود إلى التّربية التي يتلقّونها وهي أن تأكل قدر ما تحتاج وأن تنهي صحنك وألّا ترمي الطّعام مهما كان. هذه هي تربيتهم وهكذا يربّون أولادهم، أمّا نحن فنربى على الكثرة، مناسف وطناجر، عزايم كبيرة، أعراس أشبه بالمهرجانات وكلّه بالدين والقروض، ورغم ذلك نكابر ونتعزز ونرفض فكرة أننا لا نملك ما يكفي من نقود. كانت أمهاتنا في الماضي "يُرقّعن" الملابس والبنطلونات، ونحن كأولاد نحاول تغطيتها عن أعين الاخرين خجلاً وحياءً. لكننا

اليوم نشتري الملابس الممزقة متعمدين قاصدين وندفع مقابلها أغلى الاسعار، وإذا كانت " الفتحة " صغيرة فإننا نقوم بتوسيعها لتُظهر سيقاننا واماكن اخرى نحن في غِنى عن ذكرها. سبحان الله كم تغيرنا!

كلنا كنّا من سلالة فلّاحين، عملوا في الارض وجنوا محاصيلهم وحصادهم بعرق جبينهم، فزوّجوا ابناءهم بعد أن حصلوا على عائدات تعبهم. انظروا إلى دبي التي بدأت حياتها بصحراء قاحلة سكنها الأعراب الفقراء. فجأة بدأت ناطحات السحاب تعلو وتعلو وأصبح برج خليفة أعلى مبنى في العالم. ألا تستطيع ألمانيا أو اليابان بناء مثل هذا البرج أو أعلى منه؟! نعم تستطيع، ولكنهم لا يمتلكون ثقافة البحث عن أكبر برج في العالم أو أكبر صحن تبولة أو صحن حمص وكنافة. هذا ما يثبت كلامي أننا نبحث عن الأشياء الكبيرة الضخمة لنعوّض النقص والفقر الذي عشناه.

معظم الأبحاث تتحدث عن أنّ الفقراء هم أغلبية الأشخاص الذين يلعبون أو يعبّئون اليانصيب "اللوتو" على أمل أن يفوزوا يومًا ما بالجائزة الكبرى ليصبحوا أغنياء. وكثيرًا ما يحدث أنّ بعض الفقراء يحصلون على هذه الجائزة. وهنا تكون الصّدمة الكبرى بالنّسبة لهم. فيبدأون بالتّصرّف كالأغنياء دون حساب ويبذّرون المبالغ الهائلة على الملابس والسّيارات والرّحلات إلى خارج البلاد ، فيعيشون ببذخ لفترة معيّنة دون منطق أو حدود.

معظم الأبحاث تقول أنّ هؤلاء الفقراء يعودون إلى حالتهم الطّبيعيّة وإلى الفقر، وأحيانًا أكثر ممّا كانوا عليه سابقًا، بسبب عدم وعيهم ودرايتهم بالوضع الجديد الذي أصبحوا فيه.

النقطة التي أرغب في قولها إنه لكي تنتقل من "ثقافة الفقر" إلى "ثقافة الرّخاء"، يجب أن تكون عمليّة تحضير مُسبقة لك ولأبنائك. وإلّا فالمصائب تُلاحقك أينما تذهب. وهذا ما حدث معنا فقد انتقلنا من ثقافة إلى ثقافة جديدة دون تحضير أو تربيّة "فانعجقنا" أو "بطرنا" وبدأنا نعاني من عوارض هذه الظّاهرة.

هل نستطيع أن ننهي حديثنا دون طُرفة:

يُحكى أنّ شابًّا أنهى دراسته الجامعيّة وحصل على شهادة دكتور في علم الحيوان، وراح يبحث عن عمل يضمن له لقمة العيش، بدون جدوى. وقصد اخيرًا إحدى حدائق الحيوانات وعرض شهاداته على إدارتها، قال إنّه يستطيع أن يعرف عمر الكلب من صوت نباحه، ويعرف وزن محمول الحمار من وقع حوافره، وإذا رأى ذبابة على الحائط عرف ما إذا كانت ذكرًا أم أنثى، وهو يأمل أن يجد له عملًا يتناسب مع شهادته وخبرته.

قال المسؤولون في حديقة الحيوانات: "لسنا في الوقت الحاضر بحاجة إلى دكتور في علم الحيوان، لكن حدث أمس أن مات الدّب عندنا فسلخنا جلده واحتفظنا به. واليوم هو الموعد الأسبوعي

لمجيء الأطفال لمشاهدة الدّب، فإذا كان بإمكانك أن تلبس جلد الدّب وتمثّل دوره أمام الأطفال أعطيناك عشر ليرات عن كل ساعة".

قال الشّاب الدّكتور في علم الحيوان: "هاتوا لي جلد الدب!".

ولبس الدّكتور جلد الدّب وراح يرقص أمام الأطفال، فيقف على رجليه تارّة ويدبّ على الأربع طورًا والأطفال يصفّقون، وإذا بنمر يأتي من بعيد باتجاه الدّب الذي بدأ يصيح مذعورًا: "النّمر، النّمر، لعله يُريد أن يفترسني!".

لكن النّمر ما لبث أن تقدّم بكل لطف وهمس في أذن الدّب: "يا غشيم! هل ظننت أنك الدّكتور الوحيد الذي يضطر إلى لبس جلد حيوان ليضمن قوت يومه؟".

بقي علينا أن نلبس جلود التماسيح حتى "نتمسح"ولا نشعر بما يدور حولنا.

دمتم بغنى وقناعة

أ.أيمن جبارة